بريد الجمعة
ثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة
الجمعة ٢٩ يناير ١٩٩٩

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

النوافذ المغلقة

ليست رسالتي هذه عن مشكلة شخصية لي وانما عن قصة إنسانية مؤلمة لم أعاصر بداياتها.. ولكني شهدت آثارها البشعة ونالت لها.. فأنا طالب بإحدى الكليات العملية، وأمر كل يوم في طريقي من بيتي لمركوب وسيلة المواصلات التي تحملني إلى كليتي على منزل صغير قديم بحي عين شمس له حديقة ذات باب حديدي صدئ، تظهر من خلال فتحاته أطلال حديقة تمثلي بالأشجار وأصص الزهور والتكعيبات الخشبية التي تتسلق عليها النباتات المختلفة. ولقد لفت نظري من خلال مروري بهذا البيت يوما بعد يوم أن الحديقة رغم أشجارها وزهورها وتكعيباتها ميتة وأن أوراق الشجر والزهور قد جفت بسبب نقص الماء فيما تصورت، ثم شاهدت صاحبة هذا البيت أو القيمة فيه فرأيتها سيدة نحيلة وهزيلة الجسم للغاية وشاحبة الوجه وتعبر قسماتها بغير كلام عن كل ماتعاني منه..

وأثارت هذه السيدة النحيلة وحديقتها الميتة فضولي فسألت عن قصتها وعرفت أنها تعيش في هذا المنزل وحيدة، وأنها أرملة لمهندس زراعي كان يعاني من مشكلة في الإنجاب، فلم يرزقا بالأطفال، وعوض هو افتقاد الأطفال في حياته بتركيز كل اهتمامه ووقته للعناية بهذا البيت وتجميله ورعاية الحديقة وزراعتها وتنسيقها، وكان بالرغم من ذلك بخيلا ومقترا على زوجته فلا يعطيها أية نقود بالمرة، وانما يأتي هو بمتطلبات البيت أولا بأول ويحاسبها ويدقق معها بشدة في نفقات المعيشة، واستمرت حياتها معه على هذا النحو لمدة ١٢ عاما، ثم حدث أن صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق فتوفي على الفور، وشيع إلى مثواه الأخير وبكته أرملته كثيرا.. وفقدت بفقده - رغم كل شيء - الرفيق والشريك والسند الوحيد في الحياة، فلم تكد تمضي بضعة أيام على وحدتها في هذا البيت، حتى كشف لها أخوة زوجها عن حقيقة مذهلة.. هي أنها ليست أرملة شقيقهم الراحل، وانما هي مطلقته.. وبالتالي فلا حق لها في شيء من ميراثه أو معاشه، أو في البقاء في البيت الخالي بعد وفاته!! وقدم لها الأخوة وثيقة طلاق تثبت طلاقه لها بالفعل قبل ثلاث سنوات من رحيله عن الحياة.. وصدمت السيدة صدمة مزلزلة.. وتساءلت مع أي رجل كانت تعيش وقد كان حتى وفاته يحيا معها حياة زوجية كاملة؟!

وبعد الصدمة المروعة والجرح النفسي الغائر، بدأت رحلة المعاناة للمطالبة بحقوقها عن طريق القضاء، وطعنت بالتزوير في وثيقة الطلاق، فإذا بتقرير الخبير يثبت صحتها، واسقط في يد الأرملة الحائرة.. ونتج عن إثبات صحة وثيقة الطلاق حرمانها من أية حقوق لها في الميراث عن زوجها وفي المعاش كذلك.. وأخذت المحكمة - تقديرا لظروفها - بشهادة جيرانها الذين تطوعوا للشهادة لصالحها وأكدوا جميعا أنها كانت حتى اليوم الأخير من حياة زوجها تعيش معه في بيته حياة زوجية طبيعية بلا مشاكل ولا أزمات، وأنها لم تعرف أبدا ولم يعرف أحد من الجيران أنه قد طلقها.. ولم يشر حالهما اطلاقا إلى أنهما مطلقان أو منفصلان، فقضت لها المحكمة رأفة بحالها بالبقاء في منزل الزوجية، وكفت أيدي إخوة الزوج عن التعرض في البيت طوال حياتها، ورفضت الدعوى التي أقامها عليها الإخوة لطردها منه.

وهكذا واجهت هذه السيدة الحياة بعد رحيل زوجها.. وهي تقيم في بيت لاتملك طوبة واحدة منه ولا حق لها عليه.. وبلا أي ميراث أو معاش وبلا مدخرات ولا أقارب يتكفلون بها.. وعلى عكس مايفعله الزوج الطيب الذي يرحل عن الحياة فيترك لزوجته الذكريات الجميلة وما يقيم أودها ويفجها شر الحاجة، فلقد رحل هذا الزوج عن الحياة تاركا لها الإحساس المر بالذنب والعار، والحاجة، مما يجعلها كما علمت تلعنه في كل صلاة ومع كل أذان بدلا من أن تترحم عليه!

وشيئا فشيئا نفد كل ماكانت تملكه من مصاغ قليل باعته لكي تسد بثمنه رمقها، وانعكس حالها المؤلم على حال الحديقة التي كانت زاهرة.. فتساقل الأغنان في المحنة وغدر الأيام بها، فهزل جسم السيدة، وجفت دماء الحياة فيها تدريجيا من اثر سوء التغذية، وذبلت أشجار الحديقة وجفت أوراق أصص الزهور وماتت النباتات المتسلقة لقلة الماء ونقص الرعاية، فلقد تراكمت على هذه السيدة فواتير الماء والكهرباء، حتى انتهى الأمر بقطعهما عنها نهائيا منذ عدة سنوات، ومنذ ذلك الحين والسيدة تعيش في ظلام دامس ويدبن فطرة الماء... ويمنت قواها حتى لم تعد تقوى على فتح نوافذ البيت كل فترة لتهويته، فيظل مغلق الأبواب والنوافذ دائما وكأنه مقبرة، وشكت السيدة من الام مبرحة في قدميها حتى كادت تعجزها عن الحركة، ولقد يمر عليها اليوم والليومان والأيام الثلاثة دون أن تقوى على فتح نوافذ بيتها، تأبيك عن أن تجد مايقيم أودها.. ولك أن تتخيل ياسيدي أن هذه السيدة رغم كل مانعانيه، فإن ما أعطيه لها من ماء قليل كل فترة أو يعطيه لها جيرانها.. فإنها تستخدمه في النظافة والوضوء، ولا تشكو حالها لأحد سوى لربها، وفي كل مرة أذهب فيها إليها حاملا إليها بعض الماء، أتعجب لاحتمالها لكل هذه الأهوال ويصبرها العظيم على هذا الابتلاء، حتى لأدير وجهي عنها لكيلا ترى دمعي.. وأدعو الله العلي العظيم أن يرفع عنها هذا البلاء... لقد كتبت إليك هذه الكلمات لعجزي عن أن أفعل لهذه السيدة المزيد وأرجو أن تصل هذه الكلمات إلى من بيده أن يرفع عنها بعض هذه المعاناة.. مع رجاء العلم بأن هذه السيدة تحتاج إلى من ينتقل إليها لبحث حالتها.. لأنها لاتقوى على الخروج من شدة الهزال وضعف الصحة وانعدام العناية الطبية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قد وصلت «الرسالة» بالفعل إلى مالك الملك ومن بيده ملكوت كل شيء سبحانه فجرت مشيئته عز شأنه بأن ترجع الكهرباء إلى المنزل المظلم المقبور.. والماء المقطوع إلى الحديقة العطشى والأشجار الجافة والأصص الخاوية، وتنفتح نوافذ هذا البيت المغلقة ويتجدد هواؤه، وتسترد سيدته دماء الصحة والعافية بأمر ربها ومشيئته وهو الرحيم العليم، فلقد سمع الله نجوى هذه السيدة لربها وهيأ لنقل الرسالة إلى وأكرمنا بتسخير بريد الجمعة لإنقاذ مشيئته برعاية هذه السيدة الوحيدة والتكفل بأمرها، وتوفير الحياة الكريمة والرعاية الصحية اللازمة لها، ولسوف تزورك خلال ساعات الاخصائية الاجتماعية لبريد الجمعة لتصطحبها لزيارة هذه السيدة في بيتها وحل مشكلتها بما يحفظ عليها كرامتها ويقيها شر الحاجة ومذلة السؤال بإذن الله.. فهي ممن عناهم الحق سبحانه وتعالى بقوله «بحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا» ٢٧٣ البقرة.

وهؤلاء هم الأحق بالرعاية والعطاء، لأنهم عاجزون نفسيا عن سؤال الغير ولو كانت بهم خصاصة، ولقد تعتصر الحاجة أحدهم فلا يطيعه لسانه في الطلب، أو الشكوى لغير ربه، ولهذا أمرنا بأن نتحرى هؤلاء في مواقعهم وخلف استارهم التي يستترون وراءها بعوزهم عن الغير وبأن نبادرهم بالعطاء بغير طلب ونترفق بهم ونشعرهم بحقهم علينا.. ونكفيهم مؤنة السؤال، ونتحرى حفظ كرامتهم والستر عليهم بما نقدمه لهم، ولولا أني قد أردت أن يشاركني قراء هذا الباب في قصة هذه السيدة ليستفيدوا بدروسها المؤلمة ويطلعوا على وجه آخر من وجوه النفس البشرية المتغرغ، لما نشرت رسالتك هذه ولبادرت بإرسال الإخصائية الاجتماعية إليك على الفور بغير نشر، لكن كيف كان لنا أن نعلم عن النفس البشرية وشحها وبخلها وحساباتها الدنيوية الحقيرة في بعض الأحيان ما علمناه من هذه القصة المحزنة ؟..

لقد تحيرت طويلا في فهم الأسباب التي تدعو رجلا يشارك زوجته الحياة تحت سقف واحد وترضى هي بحياتها معه رغم حرمانها من الإنجاب، ويخله معها، لأن يطلقها سرا ويتكتم عنها أمر هذا الطلاق فلا تعلم به في حينه، ثم يواصل حياته معها كزوجين يجمعهما فراش واحد، ويرضى هو لنفسه بهذا الوضع الآثم ويقبل بهذا الخنا على زوجته متحملا عنها وزره الكامل لأنها لاتعرف به ويعلم به أيضا إخوته فلا ينهونه عنه، ولا يحضونه على تصحيح وضعه الشائن ووضع هذه السيدة الضحية، ولا يبرئون ذممهم من اثم المشاركة بالصمت في خداع هذه السيدة ثم يرحل عن الحياة فجاة فاذا بهؤلاء الأخوة يشهرون في وجة أرملته وثيقة طلاق عمرها ثلاث سنوات ويسعون لطردها من بيت أخيهم وحرمانها من ميراثه ومعاشه، بغير أن يتوقف أحدهم ويسائل نفسه: كيف رضي بأن يعلم عن أخيه انه يعاشر من تحرم عليه معاشرتها بغير ان يبرئ ذمته من اثمه بنصحه أو على الأقل بإعلام هذه السيدة بما علم به فتترى راجيها في حياتها معه، ويبرأ هو من حقها عليه؟.. وأي شيء من متاع الحياة يستحق ان يشارك إنسان أخاه بالصمت الشائن على مثل هذا الدنس الذي ينكره الشرع والدين والقانون».. لقد فكرت طويلا في دوافع هذا الرجل لما فعل، فلم أجد له تفسيرا سوى بخله الذي تمكن منه حتى صبغ نظرته إلى كل شيء في الحياة بالصبغة المادية الكريهة حتى ولو كان ذلك على حساب الحق والعدل والفضائل الدينية والأخلاقية.

فلقد كره الرجل ان تشاركه السيدة التي تقاسمه حياته في شيء من املاكه أو معاشه أو ماله وهو على قيد الحياة وبعد رحيله عنها، وكره ان تنازع اخوته بعد وفاته في ملكية البيت الذي يملكه ويبدو أن لإخوته نصيبا منه بالميراث عن الأب، فطلق زوجته وتحايل على عدم ابلاغها بذلك، وتستر عليه اخوته طلبا لمتاع الدنيا الرخيص، وواصل حياته معها في الدنس والاثم مقدرا فيما يبدو انه سيطول به العمر وقد يأتي الوقت الذي يراه هو مناسبا لإخراج هذه الزوجة من حياته بلا خسائر كبيرة ويكتفي بوحدته في البيت والحديقة أو يستبدل بها زوجة اخرى أقل نفقة اذا رغب في ذلك، فاذا بمكره يخيب واذا بأقداره تسبق مكره وتدبيره ويرحل عن الحياة تاركا وراءه كل شيء للآخرين ومخلفا الزوجة التي عاشرها سنوات طوالا لاتدري أكانت أرملته أم مطلقته ولا تجد مانتواجه به الحياة، وتعاني مما تشعر به من احساس غائر بالاثم لغدره بها ومعاشرته لها بغير زواج لثلاث سنوات قبل الوفاة.. وكل ذلك لكي لاتنازع اخوته في حصة محدودة من بيت صغير وحصة بائسة من معاش هزيل مهما بلغ قدره فاي اثم.. واي مكر حقير؟!

يا إلهي.. أنني لم استطع حتى الآن برغم خبرة السنين ان افهم هذا التناقض الغريب بين ضن رجل كهذا الرجل على زوجته بأن ترث حقها المشروع في ماله بعد الرحيل مما يقطع بشحه وبخله الفاضح وعدم عدالته، وبين هذا الاحساس العائلي المفترض فيه ان يكون من الفضائل بشرط العدل والذي يدفع مثل هذا الرجل لإيثار اخوته بغيراته دون زوجته فهل يستطيع احد أن يفسر لي هذا التناقض الغريب بين المنع للزوجة والإيثار للاخوة، وهما نقيضان تناقض المنع والعطاء ولا يجتمعان في النفس الشحيحة إلا نادرا؟!.. ام ترى ان هذا الرجل لم يكن يضع حتى اخوته في حساباته، وكان مطمئنا إلى الدنيا وإلى انه سوف يعمر طويلا فينفرد فيها دون زوجته والجميع بماله وأملاكه إلى ما لانهاية؟!

فلندع الآن امره لخالقه، ولنفكر معا في كيفية تعويض هذه السيدة المتعففة عما تعرضت له من عناء كاد يقضي عليها في وحدتها.. كما قضى من قبل على أشجار حديقتها وزهورها ونباتاتها.. وشكرا لك على رسالتك الكريمة هذه.. وأرجو الله ان يجزيك عنها خيرا كثيرا في حياتك ومستقبلك بإذن الله.